بسم الله الرحمن الرحيم

الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْمُحْتَاجِينَ بَيْنَ صِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ وَجَمَالِ السُّلُوكِ 1 رَبِيعِ الْأَوَّلِ 1448هـ

اتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَقَابِلُوا إِحْسَانَهُ بِالْإِحْسَانِ، وَاحْذَرُوا مُقَابَلَتَهُ بِالْإِسَاءَةِ بِالْجُحُودِ وَالْكُفْرَانِ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْإِحْسَانَ عَمَلٌ عَظِيمٌ؛ فَهُوَ الْمُصْلِحُ بِإِذْنِ اللهِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ، وَمِنْ ذَلِكَ نُهُوضُ الْمُجْتَمَعَاتِ وَصَلَاحُهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِحْسَانَ يَقْتَضِي مِنَ الْمُسْلِمِ أَنْ يُتْقِنَ عَمَلَهُ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ؛ وَبِهَذَا تَنْهَضُ الْأُمَمُ لِصَلَاحِ شُؤُونِهَا. قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْمَدَارِجِ»: وَمِنْ مَنَازِلِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَنْزِلَةُ الْإِحْسَانِ. وَهِيَ لُبُّ الْإِيمَانِ، وَرُوحُهُ وَكَمَالُهُ. وَهَذِهِ الْمَنْزِلَةُ تَجْمَعُ جَمِيعَ الْمَنَازِلِ، فَجَمِيعُهَا مُنْطَوِيَةٌ فِيهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ بَشَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ الْمُحْسِنِينَ فَقَالَ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾، فَلِلْإِحْسَانِ فَضَائِلُ كَثِيرَةٌ، وَصُوَرٌ عَدِيدَةٌ، وَمِنْ هَذِهِ الصُّوَرِ:

الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْوَالِدَيْنِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وَالْإِحْسَانُ فِي أَدَاءِ الدِّيَةِ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَىٰ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، وَأَمَرَ ﷻ بِالْإِحْسَانِ فِي رَدِّ التَّحِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، وَأَمَرَ بِالْإِحْسَانِ فِي مَالِ الْيَتِيمِ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، وَأَمَرَ بِالْإِحْسَانِ فِي الْقَوْلِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، وَأَمَرَ تَبَارَكَ اسْمُهُ بِالْإِحْسَانِ فِي مُجَادَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، بَلْ أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ». قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ»: قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ: فِيهِ رَحْمَةُ اللهِ لِعِبَادِهِ حَتَّىٰ

فِي حَالِ الْقَتْلِ، فَأَمَرَ بِالْقَتْلِ، وَأَمَرَ بِالرِّفْقِ فِيهِ.

عِبَادَ اللهِ: لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْإِحْسَانِ إِلَّا أَنَّ اللهَ يُحِبُّ أَهْلَهُ لَكَانَ مُحَفِّزًا لَهُمْ لِلْجِدِّ فِي نَيْلِ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وَإِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ فَلَا تَسَلْ عَمَّا يَأْتِيهِ مِنَ الْعَطَايَا، وَمَا يَدْفَعُ عَنْهُ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ وَالْبَلَايَا.

الثَّانِي مِنْ فَضَائِلِ الْإِحْسَانِ: أَنَّ صَاحِبَهُ فِي مَعِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. وَهَذِهِ هِيَ الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ، مَعِيَّةُ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ.

الثَّالِثُ مِنْ فَضَائِلِ الْإِحْسَانِ: أَنَّ صَاحِبَهُ قَرِيبٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الرَّابِعُ مِنْ فَضَائِلِ الْإِحْسَانِ: أَنَّ صَاحِبَهُ فِي مَأْمَنٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ. قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الْخَامِسُ مِنْ فَضَائِلِ الْإِحْسَانِ: التَّمْكِينُ لِصَاحِبِهِ فِي الْأَرْضِ. قَالَ ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

السَّادِسُ مِنْ فَوَائِدِ الْإِحْسَانِ: أَنَّهُ إِذَا اقْتَرَنَ مَعَ إِسْلَامِ الْوَجْهِ لِلَّهِ أَثْمَرَ لِصَاحِبِهِ الِاسْتِمْسَاكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَهِيَ الَّتِي يُرْجَىٰ مَعَهَا خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَىٰ اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾.

السَّابِعُ مِنْ فَضَائِلِ الْإِحْسَانِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُقْبِلُ بِقُلُوبِ الْعِبَادِ عَلَىٰ الْمُحْسِنِ، مَحَبَّةً وَمَهَابَةً؛ لِأَنَّ الْمُحْسِنَ مَحْبُوبٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وَمَنْ أَحَبَّهُ اللهُ حَبَّبَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَكَتَبَ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي

السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ». قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «**الْمُفْهِمِ لِمَا أُشْكِلَ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ مُسْلِمٍ**»: قَوْلُهُ: «ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»: يَعْنِي بِالْقَبُولِ: مَحَبَّةَ قُلُوبِ أَهْلِ الدِّينِ وَالْخَيْرِ لَهُ، وَالرِّضَا بِهِ، وَالسُّرُورَ بِلِقَائِهِ، وَاسْتِطَابَةَ ذِكْرِهِ فِي حَالِ غَيْبَتِهِ، كَمَا أَجْرَى اللهُ تَعَالَى عَادَتَهُ بِذَلِكَ فِي حَقِّ الصَّالِحِينَ مِنْ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَشَاهِيرِ الْأَئِمَّةِ. وَالْقَوْلُ فِي الْبُغْضِ عَلَى النَّقِيضِ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْحُبِّ.

الثَّامِنُ مِنْ فَضَائِلِ الْإِحْسَانِ: أَنَّ صَاحِبَهُ تُضَاعَفُ لَهُ حَسَنَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ مُضَاعَفَةَ الْحَسَنَاتِ تَكُونُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَّا الْمُحْسِنُونَ يُضَاعَفُ لَهُمْ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَيُسْتَدَلُّ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، كَتَبَ اللهُ لَهُ كُلَّ حَسَنَةٍ كَانَ أَزْلَفَهَا، وَمُحِيَتْ عَنْهُ كُلُّ سَيِّئَةٍ كَانَ أَزْلَفَهَا، ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا». وَمَنْ أَسَاءَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُقَرِّبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَتَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وَتَحُطُّ الْخَطِيئَاتِ، وَتَمْلَأُ الْقَلْبَ أُنْسًا وَسُرُورًا، وَتَبْعَثُ فِي النَّفْسِ رَاحَةً وَحُبُورًا، حُبَّ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ، وَالْعِنَايَةَ بِهِمْ، وَسَدَّ حَاجَتِهِمْ، وَمُجَالَسَتَهُمْ وَمُحَادَثَتَهُمْ. فَلَيْسَ هَذَا الْعَمَلُ الْعَظِيمُ مُقْتَصِرًا عَلَى إِطْعَامِهِمْ فَقَطْ، بَلْ هُوَ أَشْمَلُ وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتَاوَى»: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَخُلَفَاؤُهُ يَعْدِلُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، غَنِيِّهِمْ وَفَقِيرِهِمْ فِي أُمُورِهِمْ. وَلَمَّا طَلَبَ بَعْضُ الْأَغْنِيَاءِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِبْعَادَ

الْفُقَرَاءِ نَهَاهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، وَلَمَّا طَلَبَ بَعْضُ الْفُقَرَاءِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ نَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي. لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَىٰ اثْنَيْنِ. وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ». وَكَانُوا يَسْتَوُونَ فِي مَقَاعِدِهِمْ عِنْدَهُ وَفِي الِاصْطِفَافِ خَلْفَهُ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمَنْ اخْتَصَّ مِنْهُمْ بِفَضْلٍ عَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ ذَلِكَ الْفَضْلَ، كَمَا قَنَتَ لِلْقُرَّاءِ السَّبْعِينَ، وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَ أَهْلِ الصُّفَّةِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مَنْ يَرْحَمُ وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ، وَلَا يَجِدُ حَرَجًا مِنْ مُجَالَسَتِهِمْ وَمُؤَاكَلَتِهِمْ لَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ صِدْقِ وَقُوَّةِ إِيمَانِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرْجُو مِنْهُمْ شَيْئًا، بَلْ يَرْجُو مَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ. فَلِمَحَبَّةِ الْمَسَاكِينِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ، ذَكَرَهَا الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ فِي «تَفْسِيرِهِ»: وَاعْلَمْ أَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسَاكِينِ لَهَا فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا: أَنَّهَا تُوجِبُ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ لِلَّهِ ﷻ؛ لِأَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ لِمَحَبَّتِهِمْ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ ﷻ؛ لِأَنَّ نَفْعَهُمْ فِي الدُّنْيَا لَا يُرْجَىٰ غَالِبًا، فَأَمَّا مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ لِيُمْدَحَ بِذَلِكَ فَمَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ حُبًّا لَهُمْ، بَلْ حُبًّا لِأَهْلِ الدُّنْيَا، وَطَلَبًا لِمَدْحِهِمْ لَهُ بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهَا تُزِيلُ الْكِبْرَ، فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ لَا يَرْضَىٰ مُجَالَسَةَ الْمَسَاكِينِ كَمَا سَبَقَ عَنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ وَالْأَعْرَابِ، وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ، حَتَّىٰ أَنَّ بَعْضَ عُلَمَاءِ السُّوءِ كَانَ لَا يَشْهَدُ الصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ خَشْيَةَ أَنْ تُزَاحِمَهُ الْمَسَاكِينُ فِي الصَّفِّ، وَيَمْتَنِعُ بِسَبَبِ هَذَا الْكِبْرِ فَيَفُوتُهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ جِدًّا، فَإِنَّ مَجَالِسَ الذِّكْرِ وَالْعِلْمِ تَقَعُ فِيهَا كَثِيرًا مُجَالَسَةُ الْمَسَاكِينِ، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ هَذِهِ الْمَجَالِسِ، فَيَمْتَنِعُ الْمُتَكَبِّرُ مِنْ هَذِهِ الْمَجَالِسِ بِتَكَبُّرٍ، وَرُبَّمَا كَانَ الْمَسْمُوعُ مِنْهُ الذِّكْرَ وَالْعِلْمَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَسَاكِينِ، فَيَأْنَفُ أَهْلُ الْكِبْرِ مِنَ التَّرَدُّدِ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ كَذَلِكَ، فَيَفُوتُهُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ.